صلح الحديبيـــة

دراسة لمبدأ الصلح في السياسة العربية في القرن الاول الهجري

الدكتور نزار عبد اللطيف
عميد المعهد العالي
للدراسات القومية والاشتراكية

عندما هاجر الرسول (ص) والمؤمنون من مكة الى المدينة ، كان واضحا ان جوهر سياسته فيها سيكون متابعة الجهاد لتحقيق شعاره الذي اعلنه في مكة « قولوا لا اله الا الله تفلحوا تملكون بها العرب وتذل لكم العجم » ، واذا كان في مكة قد انجز بناء الاداة الثورية التي تقود عملية التغيير في الحيـــاة العربية فانه في المدينة سوف يعمل على تحويل المدينة الى قاعدة امينة للجهاد وتحقيق نموذج الامة التي يعمل لبنائها ، امة موحدة تؤمن بالله واحد ، أي انه كان لابد ان يصطدم بقوى الشرك والوثنية والتجزأة والتخلف وفي مقدمتها اهل مكة لما ترسخ بينه وبينهم من تناقض وعداوة عبر عشر سنوات قضاها في مكة محاصرا محاربا .

ولم يكن اهل مكة عند الرسول (ص) قريش فقط انما أيضا حلفائها من الاحابيش وكنانه واهل تهامه ، وهم مادة تحالفاتهـــا الاســـاسية وعصب قوتها[1] . وقد لعبت التجارة دورا بارزا واساسيا في هذه التحالفات ، اضافة الى اعتبارات اخرى ثانوية .

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/٥٠٠ .

وجه الرسول (ص) في الفترة من ١ـ٦ هـ خمس عشرة حملة عسكرية الى قريش وحلفائها[٢] . وكان هدفه الرئيس اضعاف تجارتها واقلاق طرقها وانهاء علاقتها بالقبائل التي حول مكة أو بالقرب من الساحل . ونجحت سياسته في تحقيق اهدافها فتحول موقف قبائل الساحل خاصة خزاعة الى موقف ناصح غير معادي ، كما هادن بعض كنانة[٣] . واضطربت تجـــارة قريش كثيرا[٤] واضطرت نهائيا الى تغيير خطها الى طريق العراق[٥] .

كان الرسول (ص) يرصد مظاهر التقهقر في قوة قريش ويرصد في ذات الوقت خصومه الآخرين ، بخاصة اليهود الذين بدأوا ينشطون في خيبـــر مستفيدين من قوة يهود المدينة الذين اخرجوا منها لنقضهم العهود والمواثيق المعقودة بينهم وبين الرسول (ص) . وبعد معركة الخنـــدق (الاحزاب) كان واضحا ان قوة الرسول(ص) بلغت قمة نضجها وتعاظمها وقد عبر الرسول (ص) عن هذا النضج بقوله « الآن نغزوهم ولا يغزوننا »[٦] . وكانت دلائل هـــذا التعاظم كما يلي : ـــ

اولا ـــ ان المدينة اصبحت خالصة من الجيوب المضادة والقوى المعادية فهي قاعدة متينة وامينة تمكن الرسول (ص) من الانطلاق الى خارجهـــا والضرب في عمق العدو .

ثانيا ـــ تقهقر قريش وفقدانها القدرة على تكوين أي حلف جديد لضـــرب الرسول (ص) والتراجع عن الهجوم الى الدفاع .

ثالثا ـــ تنامي القوة الذاتية للمؤمنين في المدينة فيما ظهر من تماسك اجتماعي وطاعة تامة للرسول (ص) ، وقدرات دبلوماسية وعسكرية قادرة على السيطرة على الظروف وتوجيهها وفقا لحاجات الدعوة والدولة الجديدة .

---

(٢) انظر الواقدي : المغازي ، جـ/ الاطلاع على مغازي الرسول (ص) الاولى .
(٣) تاريخ الطبري : ٢/٦٤٦ .
(٤) الواقدي : المغازي ٢/١٩٧
(٥) الواقدي : المغازي : ٢/١٨٧ .
(٦) تاريخ الطبري : ٢/٥٩٣ .

تطور الاوضاع بعد الخندق :

كانت الاوضاع الجديدة في الجزيرة بعد معركة الخندق تشير الى ان المؤمنين بقيادة الرسول (ص) هم الاقوى وان مرحلة بناء القاعدة الامنية قد انجزت وقد آن الاوان للخروج الى ابعد من حدودها وبدء الجهاد من اجل الوحدة والتحرير ، ومع ذلك فان الرسول (ص) لم يترك الاحداث دون رصد انما على العكس كان رصده للاحداث دقيقا جدا وكانت عيونه المنتشرة في كل مكان تزوده بالمعلومات عن تحركات الخصوم والاعداء[٧] ، وهي معلومات تجمعت وسجلت الدلائل التالية : ـ

اولا ـ بروز خيبر مركز قوة جديد خاصة بعدما انضاف لها اليهود الذين طردوا من المدينة لاخلالهم بالمواثيق ونكثهم العهود التي عاهدهم بها الرسول (ص) .

ثانيا ـ نشاط احبار اليهود ودعاتهم بين قبيلتي أسد وغطفان ومحاولاتهم الرامية الى تجديد حلف قديم كان قائما بين القبيلتين قبل الاسلام متخذين من اعتماد هذه القبائل على خيبر في ميرتها وسيلة للضغط عليها[٨]

ثالثا ـ اتجاه جهود اليهود نحو الشمال (فدك) وما خلفها ومفاوضتهم بني سعد لعقد تحالف ضد الرسول (ص)[٩] .

كونت هذه المعلومات لدى الرسول (ص) قناعة بأن تنامي خيبر وتحولها الى مركز قوة جديد يعني ضمنيا ان قريش أصبحت في موقع ثان وان استمرار هذا التطور في الاحداث يعني ان المدينة سوف تصبح في المستقبل وسط معادلة صعبة عناصرها خيبر مع تحالفاتها في الشمال وقريش في الجنوب ، وان أي تطور باتجاه توصل طرفي المعادلة الى التحالف يعني تهديد المدينة تهديدا بالغ الخطورة .

---

(٧) الواقدي : المغازي ١/٣٩٤ ، ٢/٤٤١ .

(٨) ن . م : ٢/٦٣٧ ، ٧٠٢ ، اسد وغطفان تمنع خيبر من العرب » .

(٩) الواقدي : المغازي ٢/٥٦٢ ، تاريخ الطبري : ٢/٦٤٢ .

موقف الرسول (ص) :

كانت خطة الرسول (ص) ذات مسارين :

الاول ـ اشغال خيبر وحلفائها واعاقة جهودهم وعدم تركها تتطور باتجاه هدفها دون اعاقة ، واشعار خيبر والقوى القبلية حولها بوجوده ورصده تحركاتهم وقدرته على التدخل متى شاء .

وقد نفذ هذا الهدف المحدود عن طريق :

١ ـ مضاعفة الحملات العسكرية باتجاه خيبر والقوى التي تسعى لكسبها فبين سنتي ٥ـ٧هـ وجه سبع حملات عسكرية الى خيبر ومن حولها[١٠] .

٢ ـ القيام بعمليات اغارة خاطفة لتصفية بعض المواقع النشطة والمتقدمة في جهود خيبر مثل ابي رافع سلام بن ابي الحقيق وهو من الذين نشطوا في عقد حلف الاحزاب . كما قامت سرية خاصة بقيادة عبدالله بن رواحه بالهجوم على خيبر واختطاف أسير بن رزام مع ابرز رجالات خيبر وقتلهم[١١] .

الثاني ـ تعميق ضعف قريش وفرض الانكفاء عليها في مكة لتأمين عدم مشاركتها في الاحداث المقبلة او عدم افادتها من الظروف التي قد تفرزها احداث المستقبل . وقد هيأ الرسول (ص) لخطته هذه على النحو التالي:

١ ـ اذكاء العواطف الدينية والشخصية لدى المسلمين نحو مكة عن طريق اظهار قدسيتها وواجب المؤمنين بتقديسها باعتبارها مركز ديانة ابراهيم الخليل أبو الانبياء ورمز الوحدة الروحية للعرب . وهذا يعني ان الحج لهذا المركز واجب عليهم[١٢] .

---

(١٠) الواقدي : المغازي ـ يراجع الجزء الاول .

(١١) الواقدي : المغازي ٢/٧٠٢ . سيرة بن هشام : ٤/٤٠ . الدياربكري : ٢/١٢ ، ١٥ .

(١٢) تاريخ الطبري : ٢/٦٣٥ رواية الامام علي بن ابي طالب ؛ الدياربكري : ٢/٢٢

٢ ــ اعلان تقديس المسلمين لمكة على الناس ومحاولة تكوين قناعة لدى القبائل بحق المسلمين في زيارة مكة .

وعندما اطمأن الرسول (ص) الى تعبئة المؤمنين نفسيا على هذه الامور قرر الخروج الى مكة حاجا سنة ٦ هـ وقد اختلفت الروايات في عدد المؤمنين معه ولكن ارجحها انهم كانوا ١٤٠٠ مؤمن[١٣] .

لقد كان توجه الرسول (ص) الى مكة توجها عسكريا اظهر فيه كل عوامل القدرة العسكرية ومقومات القوة ، قال (ص) لبديل بن ورقاء الخزاعي: « انا لم نجيء لقتال أحد ولكننا جئنا معتمرين ، وان قريشا قد نهكتهم الحرب واخذت بهم فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس وان شاءوا ان يدخلوا فيما دخل الناس فعلوا والا فقد جموا وان هم أبوا فوالذي نفسي بيده لاقاتلنهم على امري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله امره»[١٤] ان هذا القول يحدد لنا وحسب اولويات الخطة التي اتبعها الرسول (ص) .

١ ــ انه جاء حاجا .

٢ ــ وان قريش انهكت وامامها أحد ثلاث خيارات :

أ ــ الصلح « فان شاءوا ماددتهم مدة » .

ب ــ الدخول في الدين الجديد .

ج ــ القتال .

وطبيعي ان الرسول (ص) حسب اولوياته كان يريد المصالحة غير انه لكي يصل اليها ، عليه أن يظهر ما يعزز انكفاء قريش ويرهبها ويدفعها الى الصلح فليس من المعقول ان يتجه للصلح ضعيفا كان لابد ان يذهب بكل مقومات قوته ومظاهرها لكي يدفع خصمه نحو الصلح فالانطلاق من موقع القوة هو الذي يحسم القضايا ويوجهها نحو الهدف المرسوم . وعوامل القوة التي اعتمدها

---

(١٣) تاريخ الطبري : ٢/٦٢٠

(١٤) الدياربكري : ٢/١٨ .

الرسول (ص) كانت تتمثل في الطاعة المطلقة التي اظهرهـــا المؤمنون له[١٥] والارتفاع بالتعبئة النفسية للمؤمنين الى الحد الاقصى « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكون في الفتح »[١٦] وانهم كـانوا استوعبوا تحقيق هذا الهدف الى الحد الذي لن يثنيهم عنه شيء . حتى ان الرسول (ص) واجه اشكالا في علاج حالة الاستغراب التي مر بها المؤمنون عند عقده الصلح والتي وصلت حد الاعتراض على قرار الرسول (ص)[١٧] . وفي رواية للطبرى انهم لما « رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا ان يهلكوا »[١٨] .

ولقد نجحت سياسة الرسول (ص) في فرض الانكفاء على قريش وتعميق شعورها بالضعف والتخاذل بدليل كثرة السفراء الذين ارسلتهم قريش للمفاوضة وعددهم خمسة[١٩] . بينما لم يرسل الرسول الا سفيرين[٢٠] .

لقد تجمعت عدة دلائل تؤكد ان هدف الرسول (ص) كان جر قريش الى معاهدته بدليل :

١ ــ عدم تشديده على سرية توجهه الى مكة والسماح بتسـرب معلومات مسيره الى المشركين فهو اذا كان يريد لهم أن يعلموا بتحركه وان يثير تحركه في اوساطهم جدلا يقلقهم « الحرب النفسية » .

---

(١٥) تاريخ الطبري : ٢/٦٢٧ .

(١٦) الديار بكري : ٢/٢٢

(١٧) تاريخ الطبري : موقف عمر بن الخطاب ٢/٦٣٤ ، رفض المسلمين ، حلق شعورهم ، ونحر اضحياتهم ص ٦٣٧ ، موقف الامام علي بن ابي طالب اثناء كتابة نص الصلح ص ٦٣٦ .

(١٨) ن . م : ٦٣٥ .

(١٩) الديار بكري : ٢/١٨ ، ٢١

(٢٠) ن . م : ٢/١٩ ، ٢٠ .

٢ ــ تأكيده على رغبته في الهدنة منذ خروجه « ويح قريش ، لقد اهلكتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب »[٣١] . وقد حاول ايصال هذا الرأي الى اهل مكة مع العديد من الناس[٣٢] .

٣ ــ اللجوء الى ابراز قوته وبالمقابل احداث تناقض يضعف قوة الخصم يفرض عليه التوجه نحو الصلح ، فعندما قدمت قريش قوة من الاحابيش بقيادة سيدهم الحليس حرص الرسول (ص) ان يقدم « الهدى » لما كان يعرفه من « تاله » الاحابيش لكي يقتنعوا بأنه لم يأت ليحارب وقد تحقق هذا فعلا وعندما رجع سيد الاحابيش الى مكة قال : يا معشر قريش اني قد رأيت ما لا يحل من الهدى في قلائده ، قد اكل اوباره من طول الحبس عن محله ، فقالوا له: اجلس انما انت رجل أعرابي لا علم لك[٣٣] . فغضب الحليس من رد قريش وقال : « يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم ان تصدوا عن البيت الحرام من جاءه معظما له والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له او لانفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد »[٣٤] .

٤ ــ استخدامه عثمان بن عفان سفيرا لمفاوضة قريش وهو اكثر المؤمنين ليونا واكثرهم اقاربا في مكة[٣٥] .

٥ ــ اظهاره درجة عالية من المرونة وحرصه على تذليل كل العقبات التي تقف أمام الصلح والقبول ببعض الامور التي اعتبرها المؤمنون « دنية في الدين »[٣٦] ومن ذلك :

---

(٢١) سيرة بن هشام : ٤/٢٥ ، تاريخ الطبري : ٢/٦٢٠ ، ٦٢٣ .

(٢٢) ن . م : ٤/٢٥ ، تاريخ الطبري : ٢/٦٢٥ « قصة بديل بن ورقاء الخزاعي » ٢/٦٢١ « قصة بشر بن سفيان الكعبي »

(٢٣) تاريخ الطبري : ٢/٦٢٨ ، الديار بكري : ٢/١٩ « الهدى » ابل تنحر في موسم الحج .

(٢٤) ن . م .

(٢٥) تاريخ الطبري : ٢/٦٣٠ .

(٢٦) سيرة بن هشام : ٤/٢٨ .

٢ ـ الموافقة على استبدال عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » بعبارة « باسمك اللهم » وهي العبارة التي كانت تستفتح بها قريش .

٣ ـ الموافقة على حذف عبارة « رسول الله » والاكتفاء بأسمه واسم والده طرفا في الصالحة .

تطور المفاوضات :

تبادل الطرفان السفراء على مدى يوم كامل وكان الرسول (ص) معسكرا في الحديبية فلما نضجت نقاط الاتفاق اجتمع الرسول (ص) بمندوب مكة سهيل بن عمرو في خيمة الرسول (ص) واتفقا على المصالحة في صلح عرف بالحديبية . نصه :

هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهم الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على انه من اتى [رسول الله][٣٧] (محمدا) من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع [رسول الله] (محمد)[٣٨] لم ترده عليه وان بيننا عيبه مكفوفة وانه لا اسلال ولا اغلال وانه من أحب ان يدخل في عقد [رسول الله] (محمد) وعهده دخل فيه ، ومن أحب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .. وانك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وانه اذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك ، فاقمت بها ثلاثا ، وانمعك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغير هذا[٣٩] .

---

(٣٧) في تقديري ان العبارة اضافة اسلامية لاحقة فقد رفضت قريش كل مايشير الى الاسلام في الصلح والاضافة بين هلالين من عندي .

(٣٨) انظر اعلاه .

(٣٩) صيغة العبارة غير منسجمة مع صيغة الصلح في المقدمة وهي اشبه بتسجيل حوار المفاوض المكي من كونها نصا في الصلح .

بعد الصلح أخذ الرسول (ص) بيعة المؤمنين وهي البيعة التي عرفت ببيعة الشجرة وبيعة الرضوان من الرضا « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة »[٣٠] . وفي تقديرنا ان هذه البيعة كانت لعلاج حالة القلق التي اعترت المؤمنين وعدم استيعابهم قبول الرسول (ص) بالمصالحة وفي ظل امور اعتبروها « دنية في الدين » قد يكون المؤمنون مهيئين لفكرة المصالحة غير انهم لم يكونوا كذلك بالنسبة لمصالحة لا تقر بأن محمد بن عبدالله (ص) رسول الله ويعبر موقف عمر بن الخطاب عن هذا بشكل دقيق[٣١] .

نتائج الصلح :

اسفر الصلح عن نتائج مباشرة واخرى غير مباشرة

اولا ـ النتائج المباشرة :

١ ـ تحالف الرسول (ص) مع خزاعة .

٢ ـ اصبح بامكان الرسول (ص) ان يزور مكة ويبقى فيها ثلاثة أيام ، أي أصبح المجتمع الجديد الذي بناه الرسول (ص) شيئا معاشا يراه أهل مكة عن قرب ودونما انفعالات تحريضية وهي مسألة تتيح لهم المقارنة وتبين الفروق الجوهرية بين المجتمع الجديد والمجتمع القديم بعيدا عن نزعة التحريض والاستعداء[٣٢] .

٣ ـ اعتراف قريش بأنها لم تعد وحدها المتسيدة في الجزيرة وان هناك قوى اخرى تستطيع ان تحتل موقعا مساويا لها بين القبائل .

٤ ـ الافادة من الهدنة في تعزيز ايمان القبائل المحيطة بالمدينة او تلك التي تقع بينها وبين مكة والتفرغ لنشر المبادىء خارج حدود المدينة .

---

(٣٠) الفتح : ١٨ ، تاريخ الطبري : ٢/٦٣٢ .

(٣١) تاريخ الطبري : ٢/٦٣٤ .
لا تذكر المصادر ان احدا تخلف عن البيعة باستثناء الجد بن قيس الانصاري انظر ص : ٦٣٢ .

(٣٢) تاريخ الطبري : ٢/٦٣٨ رواية الزهري .

ثانيا ـ النتائج غير المباشرة :

حقق الصلح النتائج غير المباشرة التالية : ـ

١ ـ تفكك المجتمع المكي وانهيار مقوماته الدينية والفكرية وفشل مقاومته وتدهور قناعة اهل مكة بها ، حتى انهم لم يصدوا اذا كلموا بالاسلام حتى يدخلوا فيه فآمن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة(٣٣) .

٢ ـ تحرير خيبر .

كان ابرز نتائج الصلح اطلاقا « تحرير خيبر » فهي المهمة التي من أجلها عقد الرسول (ص) صلح الحديبية « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة تأخذونها فيجل لكم هذه وكف ايدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها »(٣٤) . وما أن رجع الرسول (ص) من مكة حتى تحرك الى خيبر وأمر المسلمين جميعا بالتحرك الى خيبر دون انتظار ومما لا شك فيه ان الرسول(ص) أفاد كثيرا من صلح الحديبية وآمن خطوطه الخلفية ، وعندما وصل خيبر نزل بينها وبين غطفان والشمال اي عزلها عن القوى التي كان يتوقع ان تساعدها(٣٥) . وربما ان الرسول (ص) كلف قوة محدودة في التحرك حول غطفان لاشغالها ثم أغار على حصون خيبر وما ان تم له تحريرها حتى هاجم بني سعد في فدك(٣٦) .

---

(٣٣) تاريخ الطبري : ٢/٦٣٨ ، الدياربكري : ٢/٦٥ .
(٣٤) سورة الفتح : ١٨
(٣٥) الواقدي : المغازي ٢/٦٣٩ ، تاريخ الطبري : ٣/٩
(٣٦) الواقدي : المغازي ١/٥٦٢ ، ٧٢٢ .

الدروس المستخلصة :

ان الظروف التي احاطت بعقد صلح الحديبية وصيغة الصلح تحدد لنا جوهر مبدأ الصلح عند الرسول (ص) على النحو التالي : ـ

١ ـ أن يكون الصلح بمستوى قضية جوهرية .

٢ ـ أن يكون تكتيكا ظرفيا ضمن نظرة ستراتيجية مرتبطة بالهدف فهو اجراء غير مجرد ولا مستقل .

٣ ـ ان يرتكز الصلح الى موقع قوة متنامي .

٤ ـ ان لا يكون مع قوة خارجية يتسم التناقض معها بسمة تأريخيـــــة لا رجعة فيه .

٥ ـ المحافظة على موقع القوة بمواصلة تنمية عناصر القوة وقياس المستوى الذي تبلغه مع المستوى المتحقق في الظرف الزماني والمكاني .